أرض السكوت

"لولا أن الرب معيني لسكنت نفسي سريعاً أرض السكوت" (مز٩٤: ١٧).

"ليس الأموات يسبحون الرب ولا من ينحدر إلى أرض السكوت" (مز١١٥: ١٧).

للقس أغسطينوس حنا

أرض السكوت

كثيراً ما يحلو لى أن أصلى صلاة باكر والغروب فى حديقة منزلى الخلفية فى الهواء الطلق، ليس تحت سقف ولا بين جدران ضيقة، ولكن تحت السماء الزرقاء الجميلة غير المحدودة وبين أحضان الطبيعة الخضراء التى أبدعتها ريشة الفنان الألهى الأعظم.

وفيما أصلى مزاميرى فى هذه البقعة التى تموج بالألوان الطبيعية الجميلة وألاحظ حركة الطيور بين أغصان الشجر وأصغى إلى تغاريدها وتسابيحها لخالقها، أتذكر منظر رهباننا القديسين بأديرة مصر وهم يخرجون من قلاليهم وقت الغروب ليصلوا مزاميرهم وصلواتهم وهم يتمشّون فى الصحراء المترامية الأطراف.

"أن سراج الجسد هو العين" كما أخبرنا معلمنا الصالح الرب يسوع، والعين هى النافذة التى تنفتح على العالم الخارجى حولنا وهى "لاتشبع من النظر" وتميز المناظر والمرئيات والألوان والأبعاد بصورة مذهلة. أنها من أعظم هدايا الله للبشر ومن أعجب معجزات خلقته وأحساناته ومراحمه وعنايته. وعندما أدور ببصرى فى هذه اللوحة الحيّة المحيطة بى متنقلاً من القريب إلى البعيد ومن أسفل إلى أعلى ومن الشمال إلى الجنوب فى هذه الزاوية المتسعة أو المنفرجة ١٨٠ درجة، أجد كل شئ "يُحدّث بمجد الله ويّخبر بعمل يديه" (مز١٩ : ١)، بل وتتجاوب أصداؤه مع آيات كتابنا المقدس الحيّة الخالدة.

فعلى بعد أمتار منى توجد خمائل الورود الحمراء الرائعة الجمال التى "ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها" (مت٦ : ٢٩)، انها تلفت نظرنا إلى أن الجمال الطبيعى أفضل من الجمال الصناعى وأن عمل النعمة فى

الإنسان يمنحه جمالاً أعظم وأبقى لأن جمال الجسد كعشب الحقل الذى يوجد اليوم ويذبل غداً ويموت بعد غد، بينما "يجمل الرب الودعاء بالخلاص" (مز١٤٩ : ٤).

وأقول اذا كانت الخليقة جميلة هكذا فكم يكون جمال الخالق؟ بعد ذلك أرفع بصرى إلى الأفق البعيد الممتد أمامى فأرى عن بعد على خط الأفق ناطحات السحاب بمدينة لوس انجلوس وتظهر صغيرة ضئيلة مثل "علب الكبريت" وأقول لنفسى هكذا يتضاءل العالم فى نظرنا كلما ارتفعنا وابتعدنا عنه!

وأمضى فى جولان نظرى فى سلسلة الجبال الدائرية حولى فأتذكر المزامير "رفعت عينّى إلى الجبال من حيث يأتى عونى" (مز١٢١ : ١)، أورشليم والجبال حولها والرب حول شعبه" (مز١٢٥).

ويأتى منظر غروب الشمس البديع وهى تنحدر وراء الجبال وتكسو أطراف السحب ببريق الذهب، فأقول لنفسى: "الآن مرّ وانقضى يوم من حياتك إلى غير رجعة وقربّك أكثر إلى نهاية عمرك وإلى الأبدية! وأُذكّر نفسى بأن غروب شمس اليوم انما يشير إلى غروب شمس حياتى السريعة الزوال على الأرض، وأن هذا يجب أن يكون حافزاً لى لمزيد من جهود الاستعداد للوقوف أمام عرش الله لأعطى حساباً عن نفسى وعن مسئولياتى فتأخذنى رعدة ولا أجد مناصاً من التعلّق بمراحم الرب وأجدنى أردد آيات مراثى ارميا: **"أنه من إحسانات الرب اننا لم نفن لأن مراحمه لا تزول. هى جديدة فى كل صباح، كثيرة أمانتك."** (مراثى٣ : ٢٢-٢٦).

وأفيق من هذا السرحان وانظر إلى اليمين فأرى على بُعد خمسة أميال كنيسة ماريوحنا الجميلة بمناراتها وقبابها

البيضاء قابعة فى حضن سلسلة جبال وتلال ... ثم انظر إلى اليسار فأرى مقابر كوفينا - هيلز بتلالها الخضراء الفسيحة وأقول لنفسى: هنا على اليمين الكنيسة رمز الحياة "كورة الأحياء".

وهناك على اليسار مدينة الموتى "وأرض السكوت"! وتخترق عيناى جدران الكنيسة لتستعرض الحياة التى تموج بالحركة والنشاط من الأطفال إلى الشباب إلى المسنين وترن فى أذنى الألحان والقداسات والعظات والمناقشات والترانيم - ثم ترتد عيناى إلى اليسار حيث لا حركة ولا حياة ولا صوت فى أرض السكوت ... لا شئ سوى صمت القبور!

قلت ما أكثر أحبائى وأصدقائى وأولادى وبناتى الذين انتقلوا من اليمين إلى اليسار والذين أتت آجالهم بطرق متنوعة وفى أعمار مختلفة فسكنوا فى أرض السكوت ورقدوا تحت التراب!. نعم وسوف ألحق بهم سريعاً فهذا هو طريق الأرض كلها (١مل٢ : ٢).

استميح قرائى عذراً عن جولة السرحان هذه التى يُسميها علماء النفس "تداعى الخواطر" وأعود إلى عنوان النبذة وهو (أرض السكوت)! وأقول أولاً أن هذا الوصف او التعبير هو من تأليف داود النبى الذى ذكره مرتين فى مزمورى ٩٤ ، ١١٥.

أولاً: أرض السكوت يستريح فيها جسد الإنسان

ان جميع اجهزة الجسم المعقدة التى تعمل ليل نهار بلا توقف على مدى سبعين أو ثمانين سنة (مز٩٠ : ١٠)، سوف تتوقف جميعاً إلى الأبد وتستريح وتموت وتتحلل "فيرجع التراب إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله

الذى أعطاها" (جا١٢ : ٧). وما أصدق وصف أيوب الصديق لأرض السكوت عندما فتح فاه وسبّ يوم ميلاده واشتهى الموت بقوله: "هناك يستريح المُتعبون" (أى٣ : ٧) "وكما يُسر الأجير بإنتهاء يومه" (أى١٤ : ٦) ويقول أيضاً "إذا رجوت الهاوية بيتاً لى وفى الظلام مهدّت فراشى، وقلت للقبر أنت أبى وللدود أنت أمى واختى فأين إذاً آمالى. آمالى من يعاينها. تهبط إلى مغاليق الهاوية إذ ترتاح معاً فى التراب" (أى١٧ : ١٣-١٦).

ثانياً: أرض السكوت يرتاح فيها اللسان

أن ذلك العضو الصغير الخطير، اللسان الذى وُصف بأنه عالم وحده "عالم الإثم ويُضرم دائرة الكون" (يع٣ : ٦) ويصعب ضبطه وتذليله فيملأ الدنيا صخباً وضجيجاً ولا يكف عن الكلام من الصباح إلى المساء - هذا اللسان سوف يصمت فى النهاية ويخرس إلى الأبد فى أرض السكوت". **لذلك قال أحد آباء الكنيسة: "اذكروا أن ربوات الكلمات سوف تنهتى بأرض السكوت.** "ان مجرد ذكر أرض السكوت يعتبر كفرامل للسان وتجعلنا نوفر كل "كلمة بطالة" عاطلة لا تفيد. وعبرة زيارة المقابر نافعة للإنسان العاقل تقوده للتوبة والإستعداد للأبدية. فما أكثر الجنازات التى نحضرها على سبيل المجاملة والمشاركة دون أن نستفيد منها. أننا نودع موتانا كل يوم إلى أرض السكوت، وبمجرد أن نغادر المدافن نعود لتكرار نفس خطايانا وننسى كل شئ وكأن شيئاً مالم يحدث! **ان كل جنازة هى بروفة لنا.**

ما أشد غباء الإنسان الذى لا يريد أن يتعلم ولا يتعظ ولا يتحذر. ليتنا نتعلم من أرض السكوت أن نقلل من الكلام عموماً كقول الكتاب "ان كثرة الكلام لا تخلو من معصية.

أما الضابط شفتيه فعاقل" (أم ١٠ : ١٩).

لقد أدرك داود النبى والملك خطورة خطايا الكلام واللسان فصلى فى مزمور ٣٩ الذى قال فيه: "عرفنى يارب نهايتى ومقدار أيامى كم هى فأعلم كم أنا زائل" ثم قال فى نفس هذا المزمور: **"قلت أتحفظ لسبيلى من الخطأ بلسانى! إحفظ لفمى كمامة . . .!** (مز٣٩ : ١). "كمامة" يا جلالة الملك وياقداسة النبى؟! كمامة مثل التى تشكم فكىّ كلب مسعور أو عضاض؟ يقول نعم هذا ما احتاجه بالضبط!

ثالثاً: أرض السكوت يعقبها الميزان

أن أرض السكوت ليست نهاية المطاف، وإنما هى نهاية الفصل الأول من حياة الإنسان القصيرة فى الجسد على الأرض، ولكن يُعقب ذلك بداية أبدية لا تنتهى. أن هذه الأبدية بنوعيها تتوقف على نتيجة هذا الفصل الأول. فالذين ردّوا كثيرين إلى البر بكلام النعمة يضيئون كالكواكب إلى أبد الدهور (دانيال ١٢: ٣).

إن قدماء المصريين من فجر التاريخ آمنوا بالبعث وبالحساب والثواب والعقاب ورسموا الميزان على قبورهم. إن الذين ضيعّوا أنفسهم بكلام وعمل الشر سوف يصرخون فى الجحيم إلى الأبد مع غنى لعازر طالبين قطرة ماء لتبريد لسانهم (لو١٦).

إذن فأرض السكوت رغم هدوئها الشديد وصمتها الرهيب تصرخ بأعلى صوت فى كل أذن صماء قائلة: "وُضع للناس أن يموتوا مرة وبعد ذلك الدينونة (عب٩ : ٢٧). إلا تخشى معى أن تسمع فى ذلك اليوم الرهيب قول العدل للإلهى "وزنت بالموازين فوُجدت ناقصاً" (دا٥ : ٢٧).

رابعاً: أرض السكوت تعلّمنا التسامح والغفران

فأى إنسان يرى مدينة الموتى الصامته هذه ولا يطلب لنفسه وللآخرين الرحمة والصفح والغفران؟ من يحب أن تنتهى حياته فجأة فينحدر إلى أرض السكوت الأبدى وهو متخاصم بسبب تفاهات من ماديات فانية أو إهانة جوفاء؟ ما أحرانا أن نسمع إلى نشيد الشاعر الألمانى شيلر الذى اختتم به بيتهوفن سيمفونيته التاسعة (الكورال) والذى يقول: "هلم أيها الملايين من البشر تصالحوا وتعانقوا لأن الحياة أقصر من أن نقضيها فى الخصام" وطوبى لصانعى السلام وللذين يسرعون بمبادرة السلام والغفران.

خامساً: أرض السكوت تناشدنا الاستعداد قبل فوات الأوان

قال الحكيم سليمان فى سفر الجامعة: "كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوّتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع فى الهاوية التى أنت ذاهب أليها". (جا٩ : ١٠). وفى نفس المعنى قال رب المجد يسوع المسيح: "ينبغى أن أعمل ما دام نهار. يأتى ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل" (يو٩ : ٤). وكان يقصد بالليل هنا الموت والعمل الذى ينبغى أن نعمله مادام نهار - أو ما دمنا نحيا هنا - هو العمل الصالح أو عمل الخير إذ "كان يجول يصنع خيراً ويشفى المتسلط عليهم إبليس" (أع١٠). إذاً يا أخوتى الأحباء "كونوا راسخين مكثرين فى عمل الرب كل حين عالمين أن تعبكم ليس باطلاً فى الرب" (١كو١٥ : ٥٨) "اسلكوا بالتدقيق كحكماء لا كجهلاء مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة" (اف٥) علينا الاتجار بوزناتنا ومواهبنا لمجد الله وادخار أساس حسن للمستقبل الأبدى (مت٢٥)، وخدمة الرب وربح النفوس للمسيح بكل طاقتنا وتعويض السنين التى أكلها الجراد ... نعم ليكن كل شئ للبنيان قبل فوات الأوان.

سادساً: أرض السكوت تعلمنا الرجاء والاطمئنان

قال الرسول بطرس فى خطابه التاريخى يوم الخمسين مقتبساً أيات داود النبى فى المزمور ١٦ "لذلك سُر قلبى وتهلل لسانى حتى جسدى أيضاً سيسكن مطمئناً على رجاء. لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية ولا تدع تقيك (قدوسك) يرى فساداً" (مز١٦ : ٨ ، أع٢ : ٢٦-٢٨).

إن أرض السكوت سوف تدب فيها الحياة فى اليوم الأخير حينما ينفخ رئيس الملائكة ميخائيل فى البوق العظيم يوم القيامة الذى تنتظره البشرية حيث يأتى إبن الإنسان على سحب السماء فى مجده مع ملائكة قوته فيسمع الذين فى القبور صوت إبن الله ويقوم الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين فعلوا السيئات إلى قيامة الدينونة (١تس٤ : ١٣-١٧ ، يو٥ : ٢٨-٢٩).

إن حبة الحنطة لا تحيا أن لم تمت، وإن ماتت فهى تأتى بثمر كثير" (يو١٢ : ٢٤ ، ١كو١٥ : ٣٥). ويقول أيوب الصّديق "لأن للشجرة رجاء ... ولو مات فى التراب جزعها فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعاً كالغرس" (أى١٤ : ٧).

ان رؤيا حزقيال عن وادى العظام اليابسة التى هب الروح عليها فقامت جيشاً عظيماً جداً جداً (حز٣٧) هى نبوة عن القيامة، وما حدث عند الصليب عندما الشمس أظلمت والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وظهروا لكثيرين بعد قيامة المسيح، كان "بروفة" صغيرة ومثالاً لما سيحدث عند مجئ الرب الثانى. وبذلك فالمؤمنون الذين يرقدون فى أرض السكوت فإنما على رجاء القيامة وباطمئنان كامل للحياة الأبدية المجيدة، كما هو مكتوب: "أين شوكتك ياموت. أين غلبتك يا هاوية" (١كو١٥ : ٥٥).